تمثلات ممارسة المقدس: مؤسسة الوليّ ورهانات الزمن

د/ محمد سرير
قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة يحيى فارس-المدية (الجزائر)
serirmohamed_2017@yahoo.com

الملخص:

إن الممارسة الفردية للمقدس قد أخذت عدّة أشكال متباينة، يرجع ذلك إلى تباين الديانات والأفكار والعقائد، وحتى الغاية، ومن بين الممارسات الظاهرة على مستوى الفرد حبه وتعلقه بشيخه، وكعمل تطبيقي اخترت مخطوط الشاعر عبد القادر بطبجي المستغانمي كمدونة للعمل، محاولا استنباط مفهوم المقدس المتواجد في الخطاب الشعري، محددا بعض العناصر البنائية فيه كالزمن و الفضاء المقدس الذي يعيش فيه الشاعر، ثم تطرقت إلى فضاء العقل، حيث وجدت أن العقل هو مسيره وقائده، فيعمل فيه الشاعر على إحلال الحجج والبراهين بغية إقناع المتلقي بما يراه مناسبا، مستعملا في ذلك القرائن المساعدة على ذلك لنخلص أن المقدس ظاهرة اجتماعية دينية شعبية، تتسم بممارسات مختلفة داخل دائرة مؤسسة الولي.

الكلمات المفتاحية: المقدس، الولي، الشاعر، الخطاب، الزمن، الفضاء، الممارسة

Abstract:

Individual practice of the holy varies according to religions, ideas, beliefs and even objectives. Among these individual practices the learner's love to his teacher.I have chosen the manuscript of Abdel Kader Betabdji Mostaghanmi as sample study, I tried to discover the holy in the poetic discourse, in order to determine some of its structural elements, such as time and the holy universe in which the poet lives. After that I dealt with the mind which is used to make proves in order to convince the receiver. At the end I found that the holy is a social , religious and popular phenomenon characterized by different practices into the circle of the superior's institution.

Key words: the holy, the superior, the poet, discourse, time, universe, practice.

مقدمة:

يعدّ التراث العربي حضارة عربية ممتدة في التاريخ الإنساني، الّذي يرجع الفضل فيه إلى أولئك العلماء الذين أسكبوا مدادهم على صفحات كتبهم، مخططين لموروث علمي عريق، فاختلفت بذلك التآليف و تعددت التصانيف، لتصلنا في كتب مخطوطة تخبرنا عما خلف السلف، مشخصة للحالة الثقافية الّتي عرفتها تلك الحقبة الزمنية، من هنا برزت أهمية المخطوط كأصل تاريخي، ومنبع ثقافي، وصورة اجتماعية، لمجتمع قد غابت أجسادهم وخلدت أفكارهم.

لكن الملفت للنظر هو مصطلح المخطوط، الّذي ظهر بظهور ما عرف بالطباعة، وتعريف الشيء بضده، لتبقى العربية خلوا من هذا اللفظ حتّ اختراع الطباعة، الّتي أحدثت تحوّلا في الحضارة العربية.

إنّ مصطلح المخطوط ما كان ليظهر لولا ظهور ما يقابله وهو كلمة "مطبوع"، ويصعب على الباحث في الوقت الراهن تحديد أول نص عربي ظهر فيه اللفظ، لأنّ ذلك يدعو إلى استقراء شامل لكل النصوص الحديثة، المتعلقة باكتشاف الطباعة.

وقد تعددت تسميات ما سمي عندنا اليوم بالمخطوط إلى عدة صيغ، فقد أطلق عليه العرب في القرن 1هـ الرقيم، الزبور، المصحف بفتح الميم، السفر، الرسالة، الكراسة، الجلد، الجزء، المجلدة، الكناش، أو الكناشة، الدفتر، وغيرها.

و قد أطلق على الكتاب في عصر التدوين والتأليف، الديوان أو المدون والتأليف والتصنيف أو المصنّف، وابتداء من 4هـ حين اكتملت النهضة العلمية والتأليفية، في المجتمع العربي أصبح يطلق على مصادر التراث تسميات مثل كتب الأصول، الكتب الأمهات، الكتب الأساسية، لما تحويه من أساسيات العلم، وإنّ ظهور لفظ مخطوط مرتبط بصناعة المطبوع في التراث العربي، فإننا نشير أنّ المغاربة استعملوا عبارة "نسخة قلمية" في مقابل كتاب مطبوع، قبل أن يجاوروا المشارقة في استعمال لفظ مخطوط، وهذا ما صنعه علماء الإنسانيات عندما لجأوا إلى لفظ LIBRI ، اللاتيني عوض لفظ CODEX، طوال عصر النهضة أي إلى نهاية القرن 16م، حينما اصطلحوا على لفظ manuscrite، اللاتيني والّذي سبق الإيطاليون إلى استعماله لنفس الغاية قبل الفرنسيين.

قد عرفت المخطوطات العربية تنوعا كبيرا منذ القدم، وكتابة الموروث الأدبي صفة ممتدة في القدم سار عليها الأسلاف وتبعهم الخلف، لذا نجد مخطوطات الشعر الملحون الّتي تتوزع على كامل القطر الوطني خاصة، والعربي عامة، وقد كانت ولا زالت هذه المخطوطات تعرف ندرة على الساحة الأدبية، والعمل على تحقيقها وإمدادها بماء الحياة، وتقديمها للقارئ ليعرف تاريخه وحكمة أجداده هو ما يطمح إليه كل باحث.

و من هده المخطوطات نجد مخطوط شعر عبد القادر بطبجي، الذي أمدني به الأستاذ أحمد أمين دلاي، والّذي يعمل بدوره على جمع هذا التراث وإخراجه في أحسن حليّه اللائقة به، كما تعمل باقي وحدة البحث للتراث اللاّمادي، هو مخطوط في الشعر الملحون احتوى على عدد غير قليل من القصائد، تميّزت بالشعر الملحون الدّيني الصوفي الرامي إلى تمجيد المقدّس و وصف الحياة ضمن معانيه.

يبدو الشاعر من خلال قصائده إنسان قد خبر الحياة، وانحاز إلى حبّ دينه فأحب بذلك كل مقرب إلى هذا الدين، فكان حبه للوليّ الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني، الّذي استرسل في مدحه والتوسل إليه، محاكيا في ذلك جمعا من الأولياء والصالحين، طالبا الانضمام إليهم، والعمل تحت رايتهم هذا ما جعل الشاعر يحيا في زمان ومكان تحفه القداسة، الّذي تتجلى دلالاتها في كافة أقواله وأفعاله، هذا ما يعكسه

الخطاب الشعري الوارد بلغة الشاعر فهي لغة الشعر، تفنّن الشاعر في سبكها ونسجها وسبغها بأحلى المعاني وأعمق الدلالات.

فقد دلّ المقدّس على البنية الاجتماعية، الّتي تحكمها مؤسسة الوليّ والزمان الرحب، الّذي يعدّ تطبيقا وممارسة للمقدّس، و يرافقه في ذلك المكان الّذي يعدّ فسحة للمقدّس، فصار هو ذاته مكانا مقدّسا كما جاء ذلك في مكان وحياة الشيخ عبد القادر الجيلاني، والأماكن المقدّسة كمكة و المدينة، والمسجد الأقصى.

المقدّس و المؤسسة الولي: إنّ الولي الصالح هو ملاذ المتعبد الرامي إلى حب الله ورسوله، فاتخذ سبيل الوصول و تحقيق اللذة العظمى في المحبة، حبّ الوليّ الصالح، والسير في محرابه بغية الوصول إلى حقيقته، والحياة في ظلّه، فيصبح الوليّ هو الملهم الأول للتابع، وطريقته هي سبيل النجاة، و الحياد عنها هلاك واقع. فنجد الشاعر عبد القادر بطبجي يخاطب سيده وشيخه وقرة عينه و ثمرة فؤاده:

ياسايلني راني رمريض حب الغـالي بيـــا

بي حب ايمام القطاب سهسه عظم و المخ ذاب

راسي في سفري راه مناب و قوى الضر اعلـــيا

راني في سهم العذاب كل اصبح و عشيـــا

يجيب الشاعر على من وجه إليه سؤال الحال، بأنه يعاني المرض، وعلة ذلك غياب الغالي إمام الأقطاب، فقد وهن العظم وذاب المخ، وقوي الضر، وامتد في الزمان بصبح وعشية، نلمس هذا الارتباط الوثيق بالوليّ، فقد تعدّى الضرّ الروحاني إلى ضرّ جسداني بسبب فراق الوليّ، ولا يعني هنا الوليّ بصفته الجسدية الظاهرة، إنما بصفته الروحانية فالوليّ يحضر ببركته ويعين تابعه، وهذا ما يريده الشاعر، وهو مقتنع به يريد حلول الوليّ فهو العالم بحاله و القادر على علاجه يقول:

نرجا في سلطان الصلاح فارس ديك اوديـــا

فارس ديك اوهادي تمـام راعي الحمره خضر للعلام

غوث اللي يوم الطـام في انهار المشلـــي

يريد لقاء سيده، فهو الحامي ليوم الطامة الكبرى، وما من سبيل إليه إلاّ حبّ الولي، والصدق في ذلك بإقرار بقدرته، فله الحكمة والقدرة على التغيير:

سلطان اهل الله بالجميع فارس مولا خصلا اسجيع

من يندہ بسمو ما يريع ينجا من الهويـــــا
نور شارق لبدا سطيع الأرض اوعليـــــا

و تمتد قدرته على كلّ من الإنس والجن وذلك باستجابة دعوته من طرف الإله فكلّ ما يريده حاصل

الانس مع الجن طاعتو كلتها تخشى خطوتوا
ارجع الخالق همـــتوا ما بين الصوبـــيا
مقبولا دايم دعـــوتوا عند الله مولـــــيا

و ليزيد من رفعة سيده، وتبيان حقيقته، يعمل على ربطه بالسلالة الشريفة، وبأهل الفضل الّذي ذكر مجدهم في القرآن الّذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه يقول:

من السني الى البتول سلسلة من نسل العجول
اموا وابيه من الرسول طه سيد الرقيا
غوث الشانق من كل هول نور اضي عينيا
نخدموا قبل اسند الصيام طايع الامروا عبد غلام
سكن قلبي منوا غرام ما يفترش عليا
امدحوا زادي في الرحام كنز من الكميا

إن الوليّ هو المنارة الوحيدة الّتي يبصرها التابع، وكل عمل تابع له وتحت إشرافه، رغم غيابه الجسدي فهو حاضر يأمر وينهي، أو بالأحرى يطاع على الدوام، وكل ما هو له مصان مقدّس، فقدسيته غير محدودة، شملت الذات في وعيها وفي لا وعيها، فانحلال الذات في حبّه والانزواء إلى زاويته، والعمل تحت جناحه، هو السبيل الأوحد للنجاة ولبلوغ المراد، ((الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه وهذبك بأخلاقه وأدبك بطرائقه، وأثار باطنك بإشرافه، والتاجر برأسمال غيره مفلس، الغدارة تكرار الفكر في الفؤاد بمادة من الحرص فيما جرد من الذكر، ويجتهد بأن يكون ذلك احتسابا لا ثوابا، وعبادة لا عادة، لأن من لاحظ المعمول له اشتغل به عن رؤية الاعمال))[1] وقدسية الوليّ تمتد كذلك إلى قداسة الأنبياء والصالحين، فهو منهم ولهم هذا ما يزيده رفعة وتصديقا يقول:

يا بموسى غيت الخديم طب اسقام راني اعديم
نسئلك بموسى الكليم و مـــــريم و اسيا

بجاه المصطفى الكريم و الروح الـــــقدسيا
بين مريم روح الجليل و بجـاه ابراهيم الخليل
داوي جسد راه عليل و اجلي الضرا اعليا
قعد حملي راه يميل و انفي جمع ابـلايا

نراه يتوسل بالأنبياء والصالحين، طالبا معونة سيده، فالولي قاعدة ومنهاج عام في حياة التابع، والشاعر حامل لحبه متفاني في طاعته، طالبا مساعدته في رفع رايته، وعودة عافيته، و كأنه يريد مجدا من مجد سيده يحكم ويعلو به شأنه، وتمتد دائرة الولي على سائر حياة الشاعر، فهو مؤازره في كل شيء وحاميه في كل حين.

الزمن المقدس: إن الزمن معروف بقدسيته، فهناك أيام وساعات ولحظات مقدسة لدى الأنا الإنسانية، ويمْثل هذا في الأعياد والصلوات، وأيام الصيام، وغير ذلك مما عرف علانية عند عامة المسلمين .

و هناك ما هو خاص ومرتبط بكل نفس، حيث نجد لكل منها ساعة خاصة، تمارس فيها طقوسها، وما نلمسه في شعر الشاعر بطبجي أنه يحمل كل زمانه للحياة القدسية، محملا زمانه عدة صور متباينة حيث أعطى للزمان مجالات مختلفة، باختلاف الرؤيا النفسية والصورة الذهنية والوضعية والدينية.

1) **الزمن الحالم**: هذا الزمن هو ما عرف بالزمن المنتظر، زمن يحلم به الشاعر ويناشده ملتمسا فيه الصلاح والطمأنينة والخير العام يقول:

نسئلك بموسى الكليم و مـــريم و اسيـــا
بجاه المصطفى الكريم و الـــــروح القدسيا
بين مريم روح الجليل و بجاه ابراهيم الخليل
داوي جسد راه عليل و اجلي الضـــرا اعليا
قعد حملي راه يميل و انفـــــي حمع ابلايا

إن التفكير في الزمن الماضي، والتوسل بالأنبياء الّذين عرف قدرهم عند الله تعالى، هو محاكاة لزمانهم وترك الذات تسمو في سماحة زمانهم، إنّه يناشد زمن الحكمة والرحمة والعمل الجاد والصبر، نلمس أسلوب الرمز الموضوعي الرامي إلى تخطي الواقع ((والشعر الصوفي برمزيته الأسلوبية والموضوعية، هو صاحب نزعة سريالية، والمذهب السريالي يدعو إلى التحلل من كل المنطق التقليدي، ويبين دور اللاوعي في العمل الفني، مؤكدا التداخل بين الأحلام والواقع))[2] .

يعمل على ربط زمانيين اختلفا ظاهرهما، وتشابه باطنهما، هذا الباطن الّذي يمثل حب الله والسعي نحو النجاح في تأدية الواجب القدسي مقابل جزاء عظيم، وبإعانة إله عظيم كما يقول:

نسئلك بالملايكة في كل اقبب و بالعرش الرفيع و اللوح ولحجوب
بالقلم الاعظم الرفيع و ما يكتب و الكرسي و السرادق و ما في لغيوب
بجاه بيت الحرام ورعى و يترب و بجاه المصطفى احمد نعم المحبوب
وفلي يا لمير ما منك نطلب بجاه ابراهيم الخليـــــل مع ايـوب
بجاه غوت وقتنا و الفرد اوقطب و بالاجراس و الانجاب اهل الوجوب

نراه يواصل وتيرة التوسل والحلم بزمن مجده ظاهر، يكون له عون على صعاب الحياة و مرارتها وحمل الأنا لوعيها الخارجي إلى لا وعي داخلي، بحيث تحيا حياة حالمة تحقق فيها ما عجزت عنه في واقعها.
إن ثبات الذات وديمومة حياتها مرتبطة بإرادة الحياة، والسعي إلى تحقيق مآربها، والتغلب على صعابها فمحاذاة الأقوياء وتتبع سبلهم أمر يحمل على النجاح، وإتمام المسير، فالقوّة تنبعث من عزيمتهم وسيرهم، فكم عانوا وتعذبوا لكنّهم تجلدوا و واجهوا حتى حققوا ما حققوا، فهم دوما منارة لكل محب مريد:

بوجودك رب جاد على اعبيده هما و اشباح الا يا بلبل لفراح
تنقد الى عارق تسلك و تطب المجروح
لوجود العراق بعد نحس نجموا نال اصلاح الا يا بلبل لفراح
و بقا سرك في كل جيل برياح المسك ايفوح
في بر المغريب اوشرق و سوادى حمع البطاح الا يا بلبل لفراح
نخدم اكابك سلطنا ووزر، فاطن و سيوح
و انا يا سيد هربتلك هدا الوقت اقباح الا يا بلبل لفراح
عيب ايقولو شاعر المختر راه مفضوح
راني مثل القس الفريح متكسر من لجناح الا يا بلبل لفراح
مثل الملسوع انبت كا نادي جسيد مقروح
عيطت اعليك اليوم غتني يا قصت لرباح الا يا بلبل لفراح
اذا كان انتي غنيت عن عبدك وين ايروح

إن الزمن الحالم عند الشاعر يتقلب بين توسل وعتاب، فيتوجه إلى سيده طالبا إعانته، فهو مجروح قد ألم به ألم يطول شفاءه، و ما دواءه إلاّ بشيخه، الّذي هو متيقن من قدرته وامتداد سطوته، فهو كالمسك ريحه ممتد بامتداد الهواء، فالشاعر هارب إليه من وقت يراه غير ملائم له، كما يقول "الوقت اقباح" فلا سبيل للعيش فيه، يريد التغيير أو العيش في ظلال شيخه، و يواصل أسلوب الإقناع، طلبا للفرح القريب بغية الحياة الكريمة، حياة شعارها حب الله ورسوله، ومراده في هذا السمو والمجد والعيش في ظلال الصالحين لنيل جنّة النعيم فإن مطلبه عظيم وهذا هو أجل المطالب، نراه يطلب الكرامة التي ((ما تزال تطل بالإنسان على الأمل، وتمتزج بالبطولة الدينية، وتترك العنان للخيال، وتربط الفرد بالمطلق، وتعبر عن تجارب روحية وأوليات نفسية دفاعية أوتكيفية))[3].

فالأنا الشاعرية تحيا في وعيها الواقع، حياة تذمر وبؤس، محاولة التنقل إلى زمان تعيشه في لا وعيها، زمان تعيشه كحلم، و تروم حدوثه، زمان تصفه بالأبدية وتحقيق الذاتية، فالذات بين وترين وتر آني واقعي، ووتر حالم غير واقعي، و بينهما زمان تتجاذب أطرافه فهو بحين واقع أليم و بآخر دافع إلى حلم مستقبلي فهو زمن اتسم بالتطور والسمو.

2) **الزمن المحرم**: تمتد دلالة الزمان لتصل إلى الزمن المحرم، هو الزمن الّذي حرم على الشاعر عيشه، والوصول إليه، زمان يراه محرما حتى للتفكير فيه لأنه زمان يمنع زمان آخر، ويحرم عليك الحياة لزمن تريده يقول:

استيفض يا فطين لا تبقا في الغر	لا تسعفش ابليس واكا الفلك ايضور
لا تفـــرح لسرور لبلده من الكدر	وين الرشيد وين جده المنصـــــور
وين يحي ويد الفضل او جعفـــر	البـرامكة اهل الفضل والتفخـــور
وين الملوك قبلهم شوف استعبـــر	فيهم الي انتساو من باقي مدكـــور
هذا حال الزمان بصحاب يغـــدر	الدايـــــــم بدوام ليلاه الشكـــور
استفيض ما لمنام و فطن و استغفر	لا تغلط راك طحت في وسط الجمهور

إن الزمان يحرم بحرمة قرينة له تكون مرتبطة بما سيؤول إليه، فإذا كان هذا الزمان مرتبط بغش ومكر فلا طائل من الاسترسال فيه، وطلب المجد فيه، نرى أسلوب الإقناع والدلالة، فيذكر الخلفاء من هارون الرشيد وجدّه المنصور ووزيره يحي البرمكي، والفضل كلهم أصبحوا في خبر كان، لا خبر لهم اليوم، فقد جار عليهم الزمان وأصبحوا في طي النسيان، فما لهم من زاد إلا ما كانوا في حياتهم له جامعين، وعاملين، فهم عبرة لمن يعتبر، فقد تحوّل الشاعر إلى واعظ ومدرس حكيم، يخاطب ذوي النهى علّه يجد آذانا صاغية،

محذرا من زمان يهوي بالذات إلى هلاكها، وإعمال قوة العقل في اجتناب ما هو ضار مهلك والتمسك بحب الصالحين علّه يجد فيهم نجاته يقول:

علال بن محمد جيتك شاكي بما جره و اجميع اخلاق مكشره

راه مما و نسيت خاطرى مكسور

انت المدكور فى الشدايد توكد يوم المناقره سرك ما يخفا على الوره

لا تنساني يا جبرت المكمور

العارا عليك كان جزت اخديمك يا شجرة الذره يا ذباب اقفول قاصر

ليغاته ال يا مسلك الميسور

انا هربتلك نستدرق مالشر و العره لا تهدانى للمدامره

خايف بعد العز في حماك انبور

مالى شعال و لا زاد و لابيع لا شره غيرا عنايتكم الحاضره

نمجدكم بسدق يا هل الجمهور

فالزمن المحرم سائر في حياته، حتى إنه يجعل زمانه مرتبط بزمان شيخه، فهو يريد الوصول إلى أسياده والحياة في زمانهم، هذا ما يحقق له الوحدة الروحية، وانحلال ذاته في ذواتهم، فيصير واحدا منهم فلا حول ولا قوة له، إلاّ بالعيش في ظلهم والهروب إليهم، فهم الدافع إلى الحياة وإلى تأمين الطمأنينة والراحة، وتحقيق العزة، إنه تمرد على الواقع المعيش ورفض له، يبحث عن التغيير بحياته في عالم لاواقعي، فقد ماثل الشاعر الفكر الأسطوري الرامي إلى التمسك بقوى الآلهة التي تمدهم بالقوة، وتبعد عنهم الشرور، فالشيخ علال هنا بمثابة الشخصية الأسطورية ممثلة لزمن تاريخي مقدس، فذات الشيخ لها امتداد لحياة الرسل والأنبياء مكتسبة القدرة على التغيير لذا يطلب منه الاستجابة يقول:

دالى زمان و انا نلجا داتى مضمره بحمول المحنه معمره

نتلطم مبلى بحالت المسحور

دالى تمام عشرين اسنه بحساب ضاهره و جوارح لضى صابره

طال اسقامي عاد خاطرى مدعور

حامل حمول صابر صبر الايبيل سايره في فيافي الصحرى المكضره

هكداك اني نراقب المقضور

وانتي عنى غفلت ما جابك نيف ولا مباشره لش اموخر دا لمواخره

ما شفك حالى هدتنى مقهور

لا زال يواصل وصف زمان محرم عليه، زمان يعيشه في كدر وضنك، فقد عاش ما يقارب العشرين سنة متحملا أحمالا تنوء بها الجبال الرواسي، و قد شبه ثقل صبره بصبر الجمال، و صبر الجمل ما له حدود فهو يقطع الأميال محملا بالأثقال، في فيافي الصحراء بحرارتها الملتهبة ورمالها السرابية.

فنرى الشاعر يعاتب سيده مضمنا ذلك توسل وطلب الإعانة، فهو يفصح عن همومه لمقتدر، راجيا الفرج، يفصح الخطاب الشعري عن رفض ساد فترات زمانه، امتدّ على حياته الاجتماعية والنفسية والدينية فالتجأ إلى سيده راجيا السلاك، محوّلا كل طاقاته إلى توسل، مستعينا بأسلوب الوصف المباشر والإقناع بغية الوصول إلى نتيجة مؤكدة.

فضاء المخيال الشعبي: اتسم المخيال الشعبي بفضاءات أحاطت بالمقدس، و جعلته ركيزة أساسية في فردانية الأنا، وترتبت عليها باقي نشاطات الذات، وقد تم ذلك بإخضاع كل ما هو أساسي أو ثانوي لقانون المقدس، منتج عن ذلك المباح، والمحرم، والواجب، وغير ذلك من مقاييس ومعايير أحكام العباد.

فضاء الوليّ: قد احتكر الولي الصالح حيزا هاما في فضاء المخيال الشعبي، مما جعله يتصف بمجموعة من الصفات الّتي تقترب من المعجزات، وجعله من عباد الله المصطفين، كلمتهم مسموعة ودعوتهم مستجابة، ((إنّ كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزات، وهم بها عالمون بإثباتها ناطقون، لأنّ الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة، والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها لأنهم معصومون، وكرامة الولي بإجابة دعوة، و تمام حال، و قوة على فعل، وكفاية مؤنة، يقوم لهم الحق بها، وهي مما يخرج عن العادات ومعجزات الأنبياء إخراج الشيء من العدم إلى الوجود))[4].

هكذا كان للوليّ المنزلة الرفيعة، والكلمة المسموعة، فمقامه محمود وسيرته عطرة، فكل متبع له ناج وكل محايد عنه هالك، فهو في نظر تابعيه عالم جليل، قريب من الله مجاب الدعاء، أُعطي الحكمة والبصيرة، ورضاءه من رضى الله تعالى، فهو سمة ظاهرة للعيان، ودعوة الظاهر ليس كالغائب ظاهر علمه وورعه، دعاءه به طمأنينة واستجابة يقول:

انا شتكتلك بسقامي علا مدخره هدى سبع اسنين شاهر

و سقامى ينزاد و الصدر مدرور

ادعى البلاد دعوتك مخبولا منوره يستجبلك خالق الترى

من ودك بالرفع و السرار اونور

سبحان من عطاك البركه الحاضره و القطبانية الباهره

و التصريف على الفجار و المعمور

انا قصدتلك بلا ششك و لا معاجره تقضلى حاجتى مضهره

و تقوللى دني واخر مستور

يا غوت كل حاصل يسرلنا المعسره حل اسنا سلنا المجرجره

و اطلق اسراح من البلا و الزور

من هذا المنظور اتسع مفهوم المقدس، ليكتسب فضاء معنويا تجلى في قداسة الولي، وسيطرته التامة على الذات التابعة فالشعر الصوفي ((تعبير عن وجدان الشاعر وعن ذاته وأعماق نفسه، فهو أدب وجداني خالص وهو مذهب رومانسي حالم، وهو إشراقي النزعة روحي الهوى))[5] وذلك انطلاقا من دعوته الّتي تُعني باستجابة مباشرة وتزداد القداسة قوة في معاتبة المقدس الولي، فهو سامع مدرك لما يقال له، وهذا ما يدل على تلك القرابة والصلة الحاكمة للمريد وشيخه الذي يراه حقيقة في خياله، فالتخييل الذي يعدّ ((قوة تركيبية سحرية ...التي تكشف عن ذاتها، في حلق التوازن، أو التوفيق بين الصفات المتضادة أوالمتعارضة))[6]، فعتابه زيادة لمحبته وطلبا لمعونته واستعجالا لفرجه يقول:

حصراه ازمان امنين كان عنى ايغير كى ننده بسموا الصديق يحضر

و اليوم للحسود دســـــهم ادمير فى وعدي بوسهمين ما تقتير

ما جابوا نيف اعنيتى مغيت اليسير راعى الحمره جبار من تكسر

ادا يعطف عنى البال من كل خير عضمى بعد اتهراس به يجبر

ما عندى يروا سيد راه رب خبير عالم باصر بالخاجي و ضاهر

اراعي الحمره راك عالم بما يصير لا تهـــــداني بين العقاد باير

إن الفضاء الديني الّذي يحيا فيه الشاعر محاط بمحبة شيخه، والإخلاص في خدمته فهو عنده عبادة وجب تأديتها، لبلوغ محبة الله و رضاه، واضعا بذلك الولي الصالح امتدادا لمشيئة الله، و حبّه وطاعته منحدرة من حبّ و طاعة الله تعالى، و هذا ما أفرده الأولياء لأنفسهم، بحيث خرجوا من النظام الناسوتي إلى النظام الإلهي ((المقدس كفعل إرادي ذاتي يكتسبه الإنسان بمجهوده الخاص، وهي طريق الأولياء في الاكتساب الّذين يمكنهم بفضل المجاهدة عبر الرياضة الدينية، بعد المرور بالمقامات والأحوال من الوصول إلى الحقيقة الّتي هي

المعبر الموصل للقداسة، وترتكز في ذلك على تفعيل البعد اللاهوتي في الإنسان ليطغى على البعد الناسوتي فيه))[7].

والكلام في حقيقة الأولياء وكراماتهم واسع، لكن ما أود الإشارة إليه، هو العمل اللاهوتي الذي اتسم به وخرج به من دائرة العمل الإنساني، فنال بذلك درجة القداسة، وصورة الولي في المخيال الشعبي حاضرة في كل حين، فهو المبارك للأعمال، والحافظ للبنين والناصر على الباغي، والمفرج للكروب، ولهذا نظمت له الأعياد والأضاحي والزيارات، وأحكمت له الطقوس، فصارت بذلك عادة لا يحيد عنها متبع، و الحياد عنها حياد عن الفكر الجماعي، ((مما أعطى دفعا قويا للمقدس وفعالية اجتماعية لتحول المقدس من الفرد كميزة شخصية، إذا المؤسسة كالولي المؤسس للقبيلة أو القطب مؤسس الطريقة الصوفية، مما نتج عنه ارتباط المقدس بالظاهرة العمرانية بدوية كانت أم ريفية حضرية، عبر التأسيس أو إعادة التأسيس أو المباركة، لضمان الحماية أو الاستمرارية))[8]، كما عمل المخيال الشعبي على رفع الشخصيات الدينية إلى مصاف الشخصية الأسطورية حيث((نسج حولهم الخيال الشعبي على مر القرون قصصا نسبت إليهم أعمالا خارقة وجعلت منهم مزيجا من الآلهة والإنسان تارة، أو رفعتهم عن منزلة الإنسان الطبيعي تارة أخرى فأتوا بالأعمال الخارقة))[9]، ومثال ذلك شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفضاء العقلي : عرف المقدس بخدمته للعقل، بحيث يكون العقل دال عليه، فالقداسة أمر يستدل عليه بالعقل، وذلك في تيقن الأمر وتبينه، فيثبت أنه أساس دين يكبر الذات ويحكمها، ومن هنا وجب تقديسه، فكان بذلك المقدس كل ما شكل على الذات الواعية فهمه، والوصول إليه فما عليه إلى الإيمان به غيبيا ويصير بذلك تقديسيا، و يتسم ذلك بالتوارث، فالعقل دليل إليه بصفته كائن عاجز عن بلوغ كنهه ((المقدس في اللغة هو المطهر والمنزه المبارك، ومن هذه المعاني فإن القداسة تكتسب بالوراثة، وهي بهذا الشكل تصبح غير ذاتية، و لا تخضع لإرادة الإنسان بل هي قوة خارجة عنه و عن إرادته))[10].

وما يميز المقدس أنه يعتمد على قوة ذات طبيعة روحية، وهي خفية ولا مرئية (سواء كان ذلك متمثلا في أحوال الموتى الطوطم أو إله الديانات التوحيدية) وهذا ما يجعلنا نؤسس للمقدس مبدأين أساسين هما المبدأ الخارق: وهو ما ذكرناه آنفا، والثاني المبدأ المؤمن : وهو وعي بهذه القوة الخفية والجبارة، إن المؤمن عبر قناعاته ومعتقداته يدخل في علاقة مع هذا المبدأ الخارق الذي يحمل نفسه على التقديس.

من هنا نطرح السؤال الآتي كيف يمكن تقديس قوة إلهية غائبة وحاضرة في نفس الوقت ؟ فلا بد من وجود عنصر تواصل بين الإلهي والمؤمن، نجد هذا يتجلى في الطبيعة، و ما يراه المؤمن حوله فيهتدي بعقله إلى وجود قوة إلهية خفية تسير، فمنها يؤسس المقدس و من هنا تكون علاقة تبادل بين الإله والمؤمن.

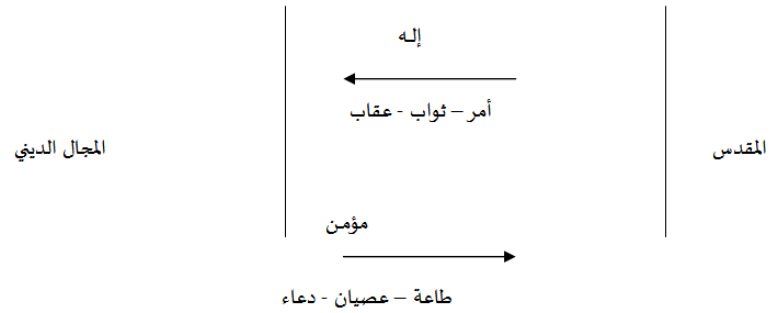

وهنا نلمس تقارب المقدس من السلطة، فشيء مقدس ذو سلطة حاكمة، بيده الأمر والنهي والتشريع وما على المؤمن سوى الطاعة والإيجاب، وهذا ما نلمس حضوره في الشعر الملحون المترجم لأفكار الشاعر وأحاسيسه، حين يظهر طاعته وتذلله لشيخه، بأنه القوة الخارقة القادرة على نصره وتوفير الحماية له والعزّة.

والعقل هو المرشد الأول إلى القداسة، والدال على الشرع فالعقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن له أساس يقول الشاعر:

ما فنا من خدمش سلطان أتعره	قالوا العقال محب السيد امسيد
الى يصحبش بطل ما يخشى كشره	يدرك طوره بهمتو راس يصعد
و انا لزيت تحت حرمك نستدره	قلت اسعد غنمت كنز الا ينفد
ما يهدانش ننغبن غز الفقره	متوج به لبد ما نخشى من حد
فى موضع الوعار ما نخش عتره	من يكرهنى على الضراره يتسجد
راه النعاس عاد يدع بالقدره	هدا كسران حرم منوا با لمجد
يعرفنى عبد حضرتك يا بخيره	فى ضنى راه بك يستهزه بالجد
ما شفنا فاز نجم ناحس بالقمره	و شفنا ديب عوق اقبال الاسد
الهامه ما تعاند الباز فى طيره	و الكلخا ما تعود للبتار فضد

نلمس قوة العقل والبصيرة، يعمل على الإقناع القائم على إقامة الحجة مما هو ملموس وظاهر، فالشاعر أدرك حقيقة ما حوله وأنه ذو ضعف حاكم في ذاته، ماله إلا الطاعة وطلب الإعانة، ومادام على حق فالنصر حليفه، ففضاء العقل ذو فسحة على مستوى الخطاب الشعري الرامي إلى التقديس.

الفضاء التاريخي: إن الفضاء التاريخي يعد مظهر من مظاهر المقدس، وذلك في عودة النفس الإنسانية إلى ماضيها وإحياء تاريخها، فتؤسس بذلك قداسة ذات بناء تأثيري على ما هو حديث ومعاصر، وذلك بذكر أنبيائها ومعجزاتها ورجال الصلاح والخلفاء والصحابة والتابعين، حتىّ الحوادث والأماكن الّتي حجز لها تاريخ قدسية سارت في الأنا الإنسانية وتوارثتها الأجيال.

الأصل في المقدس أن يستند على القناعات العقلية، ولا بد أن يقوم على أساس من البرهان وفي الوقت الّذي يفقد فيه المقدس هذا الأساس لابد أن يتكئ على التاريخ ليستمد منه الأصالة، وقوة التأثير في عالم المشاعر.

فالتاريخ تراث عامل في الشخصية، وموجه لديانتها، وقدسيته سارية في التجربة الدينية الإنسانية، ذلك ما نراه ماثلا في بناء المساجد وممارسات بعض الطقوس الدينية، الّتي يرجع أكثرها لمبدأ تاريخي متوارث.

وعودة المؤمن إلى تاريخه الّذي يمده بالقوة والقدرة، لمواصلة السير على طريق قد بدأه الأوّلون وسيكمله المتأخرون، بحيث يصبح هو حلقة وسطى تصل بين الماضي والحاضر، فإن رأيناه يبني مسجدا بمواصفات خاصة تابعة لتاريخ ديني وخادمة لفكر اجتماعي معاصر بنى تفكيره على تاريخ يراه مقدس، لكن طريقة التقديس تختلف باختلاف التحولات الاجتماعية، مما يبعث على تحوّل في الفكر يُبقى على الأصل ويبدع في الفرع، ومما يثبت التاريخ كعلامة دالة نجد قبر الولي الصالح كثيرا ما يبنى له مسجد أو زاوية ويصبح قبلة للمصلين، والطالبين لبركته، وهذا ما يعطي للمقدس صفة الإنتقال إلى أصل، فما كان عامل التقديس أصبح هو نفسه مقدسا يقول :

يا غوت كل حاصل يسرلنا المعسره حل اسناسلنا المجرجره

و اطلق اسراح من البلا و الزور

بجاه فضل محمد و اهلوا و المعاشره و على بوسهمين حيضره

بوبكر و عمار و عثمان المقدور

يا شيخ نرغبك بالقرءان و جمع من قرى طه و يسن و البقره

بالكرسي و القلم و اللوح المسطور

بجاه فضل و لديك واجدادك الطاهره نسل الاشراف المخنتره

و الحسنين الفايزين عن لبضور

بجاه فضل دريتك الرجول و المره لا تهدا داتى مكشره

و عطفلى بحسان و دك المشكور

انا هدتلك من شوقى حلا محجره بتبرا و جوهر مزرزره

تقبلها من عند شاعرك معدور

نلمس محاكاة التاريخ الديني والاستعانة به لتقوية الأنا، (القرآن، الصحابة، القلم واللوح، ذرية الشيخ وأجداده) إنها استمرارية للمقدس يود فيها الشاعر الوصول إلى رضى الشيخ بما يراه محبوبا لديه، نلمس تمازج الديني والدنيوي دون أن يتعارضا في الغاية، ((يشير المقدس إلى ذوات وأشياء أو موضوعات هي أساسا موضوعات وأشياء العالم))[11] فالشاعر يستمد القوة منها لمواجهة الحاضر بالعودة للتاريخ وطلب الإعانة، إنه إحلال لتاريخ ماض في حاضر ممارس، ما يحدث ثنائية ضدية ماض وحاضر، وكل عامل في الآخر مرتبط به، وهو ما يثبت نظرية الأصالة والمعاصرة، فالتاريخ روح يحيا بجسد الحداثة وفضاءه ممتد بكل أطرافه يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

هوامش البحث:

[1]- آداب المريدين في التصوف، أبو بكر الشيباني الموصلي، تحقيق ونشر صلاح الدين سيباني، لجنة إحياء التراث، 1999، ص 32.

[2]- الأدب في التراث الصوفي، عبد المنعم خفاجي، دار غريب، القاهرة، ص 177.

[3]- علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط.1، 1977، بيروت لبنان، ص 19.

[4] - لتعرف لمذهب أهل التصوف، محمد الكلاباذي أبو بكر، دار الكتب العلمية - بيروت، 1400،ص74.

[5]- الأدب في التراث الصوفي، عبد المنعم خفاجي، 178.

[6]- في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد القديمن عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، 2000 الإسكندرية، الجزء 01، ص 152.

[7]- المقدس والعنف في التجربة الصوفية، محمد خالد، مجلة إنسانيات العدد 11 سنة 2000، ص69.

[8] - أبحاث في التصوف والطرق الصوفية، سعيد جاب الخير، الجزائر ص 85.

[9]- كارم محمود عزيز، الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، شركة الأمل للطباعة والنشر، ط.1، القاهرة 2002، ص 63.

[10]- المقدس والعنف في التجربة الصوفية، محمد خالد، ص 70.

[11]- المقدس والمجتمع، نور الدين الزاهي، افريقيا الشرق المغرب، 2011، ص 39.

المصادر والمراجع:

1. مخطوط عبد القادر بطبجي (ديوان شعر).
2. أبو بكر الشيباني الموصلي، آداب المريدين في التصوف،تحقيق ونشر صلاح الدين سيباني، لجنة إحياء التراث، 1999،

3. عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، دار غريب، القاهرة.
4. عثمان موافي، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد القديمن دار المعرفة الجامعية، 2000 الإسكندرية.
5. علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط.1، بيروت لبنان، 1977.
6. سعيد جاب الخير، أبحاث في التصوف والطرق الصوفية، الجزائر.
7. محمد الكلاباذي أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية - بيروت، 1400
8. نور الدين الزاهي، المقدس والمجتمع، افريقيا الشرق المغرب، 2011،
9. كارم محمود عزيز، الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، شركة الأمل للطباعة والنشر، ط.1، القاهرة 2002.
10. المقدس والعنف في التجربة الصوفية، محمد خالد، مجلة إنسانيات العدد 11 سنة 2000.